شفيق جبري

شاعر الشام

بقلم : عيسى فتوح

اذا ما أحصينا شعراء الكلاسيكية في سورية ، برز اسم شفيق جبري في الطليعة ، لأن هذا المذهب كان أول ما ساد فيها حتى زمن متأخر ، وقد تأثر به شعراء كثيرون منهم خليل مردم ، وبدوي الجبل ، وشفيق جبري ، ومحمد البزم ، وبدر الدين الحامد ، وخير الدين الزركلي ، وسليم الزركلي ، وأنور العطار ، وعمر أبو ريشة ، وعدنان مردم ، وعبد الرحيم الحصني ، وأحمد الجندي وغيرهم ممن آثروا متانة الأسلوب ، وجزالة الألفاظ ، وقوة التركيب ، وجلال المعنى ، وساروا على منهج القدماء في صورهم وتعابيرهم وأخيلتهم ، وطغت عليهم النزعة الوطنية في أكثر ما نظموا .

لقد انصرف جميع هؤلاء الشعراء الى نظم الشعر العمودي ، ولم ينازعهم النثر ، ما عدا خليل مردم ، وشفيق جبري اللذين امتلكا ناصيتي الشعر والنثر معا ، فألف شفيق جبري عشرة كتب هي : الجاحظ معلم العقل والأدب ، المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس ، دراسة الأغاني ، بين البحر والصحراء ، العناصر النفسية في سياسة العرب ، أبو الفرج الأصفهاني ، أرض السحر ، أنا والشعر ، أنا والنثر ، محاضرات عن محمد كرد علي ، بالاضافة الى عدة محاضرات عن أحمد فارس الشدياق ، ومقالات نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي وغيرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما ديوانه « نوح العندليب » فلم يطبع حتى الآن ، وقد كلف مجمع اللغة العربية بدمشق الأستاذ قدري الحكيم ليشرف على طباعته بعد أن تسلم المخطوطة .

● ● ●

ولد شفيق جبري في حي الشاغور بدمشق ليلة الأربعاء في ١٤ شعبان عام ١٣١٤ الموافق ١٨٩٨ م[1] ، ولما بلغ الخامسة أرسله والده ـ وكان من كبار تجار دمشق ـ الى كتاتيب الحي ليتعلم القرآن وحسن الخط ، وقليلا من الحساب ، وبعد سنةٍ نقله الى المدرسة العازارية في حي باب توما ، فمكث فيها تسع سنوات ، حصل في نهايتها على شهادة ختام الدراسة الثانوية عام ١٩١٣ ، وكان الأول في صفه ، فأتقن الفرنسية وعلم النحو على أيدي رهبان المدرسة ، كما درس مبادئ اللغة الانكليزية ، أما اللغة العربية وآدابها فأتقنها على نفسه ، وكان هو نفسه مدرسة قائمة بذاتها .

رافق والده في إحدى رحلاته التجارية الى يافا بفلسطين ، فراح يرسل من هناك بعض المقالات الى جريدة « المهذب » في زحلة ، ولما سافر الى الاسكندرية عثر في إحدى مكتباتها على ديوان المتنبي بشرح الشيخ ناصيف اليازجي ، فاشتراه وراح يلتهمه ، ويبدو أنه حفظ شعر المتنبي وأولع به منذ ذلك الحين ، ثم قرأ المعلقات ، والشعر الجاهلي ، وشعر البحتري والشريف الرضي ، وحين عاد الى دمشق عام ١٩١٨ ، أخذ ينشر قصائده في الصحف ، فلفت إليه الأنظار .

---

(١) [إن تاريخ ١٤ شعبان عام ١٣١٤ هـ يوافق ١٩ كانون الثاني ١٨٩٧ م / لجنة المجله] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عكف أثناء الحرب على مطالعة آثار ابن المقفع ، وابن عبد ربه ، وابن خلدون ، والصابي والجاحظ ، فقوي بيانه ، وتعمقت ثقافته ، وازداد علمه ، ثم رجع بعد ذلك الى الأدب الفرنسي وتعلق بأناتول فرانس ، فأفادته كتبه كثيراً ، وتعلم من هذا الكاتب العبقريّ وضوح العبارة والفكر والبعد عن الحشو والغموض .

تعلق بالوظائف الحكومية منذ نشأته ، فعمل عام ١٩١٨ مراقباً للمطبوعات ، ثم مترجماً فسكرتيراً لوزارة الخارجية ، الى أن انتقل عام ١٩٢٠ الى وزارة المعارف ، فعين رئيساً لديوانها واستمر وهو في هذه الوظيفة ينشر المقالات والقصائد ، فنشأت له قدرة على الشعر والنثر .

وفي عام ١٩٢٦ م انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق .

وحين أسست كلية الآداب في الجامعة السورية عام ١٩٢٨ عين أستاذاً فيها ، فألقى على طلابه عدة محاضرات عن الجاحظ والمتنبي ، استقبلها الأدباء في الوطن العربي أحسن استقبال ، ثم انقطع عن الوظائف خمسة عشر عاماً ، عاد بعدها عميداً لكلية الآداب ، كما انتخب مقراراً للجنة الشعر في المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية أثناء الوحدة بين سورية ومصر ، ولما أحيل الى التقاعد من عمادة كلية الآداب عام ١٩٥٨ انزوى في بيته الريفي بمصيف « بلودان » ، وانقطع الى الكتابة والتأليف ، وقد أتاحت له هذه الحياة الهادئة البسيطة مع القرويين مزيداً من التأمل والتفكير وراحة الأعصاب ، والخلو الى النفس ، والابتعاد عن ضجيج المدينة ومشكلاتها ، ولذلك امتد به العمر حتى بلغ الثانية والثمانين ، وتوفي عام ١٩٨٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شفيق جبري شاعر الوطنية

عرفنا ولوع شفيق جبري بالشعر وهو صغير ، حتى أنه نسخ ديوان المتنبي بشرح اليازجي وحفظه ، كما حفظ المعلقات ، وأشعار الجاهليين ، وديواني البحتري والشريف الرضي ، ثم نسي هذه القصائد كلها ، وبقي له منها الملكة والذوق . ولحسن الحظ أن العصر الذي تفتحت فيه عيناه الى النور كان الذوق فيه سليماً . وبعد أن تزود من الثقافة العربية الأصيلة ، أخذ ينظم الشعر ، معتمداً بادئ الأمر على الاقتباس ، اقتباس الفكرة ، وأحياناً اقتباس اللفظ ، سواء أكان ذلك من نظرات المنفلوطي أم من شعر صديقه خير الدين الزركلي ، أم من شعر المتنبي ، أم من الكتاب الأجانب ، وتلك مرحلة لا ندحة عنها في بداية حياة الأدباء والفنانين جميعاً .

أما لماذا اتجه الى الشعر الوطني والقومي بنوع خاص ، فهذا ما يحدثنا عنه في كتابه « أنا والشعر » ومقاله « قصة أديب » الذي نشره في الجزء الثالث (تموز) من مجلة مجمع اللغة العربية عام ١٩٦١ إذ يقول :

« لماذا مارست الشعر وكيف مارسته ؟ هذا أمر لا أزال أجهله ، وكل ما يخطر ببالي في هذا الباب أني لما تركت المدرسة ، فاجأتنا الحرب الكبرى الأولى . فجاش الشعر في صدري ، وأنا على غير استعداد له ، لأنه يحتاج الى أشياء كثيرة غير الأشياء التي تهبها الطبيعة ، يحتاج الى امتزاج بشعر الكبار من الشعراء حتى يألف الإنسان أساليبهم ويتصرف في صورهم ، ولم يتيسر لي في أول الأمر شيء من ذلك ، لكن الشعر لما خطر ببالي كان يتصل بالحرب وحوادثها ... ثم انصرفت بعد ذلك الى مطالعة شعر المتقدمين ، فألفت بعض الألفة مناحيهم ، حتى اذا همدت نيران

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحرب ، احتاجت البيئة الى تأجيج نيران ثانية ، نيران فسيطرت البيئة علي فلم أستطع التملص من تأثيرها ، فجريت في شعري على لهيب هذه النيران ، ولما نشأ شعراء شباب وأخذوا يصورون في شعرهم ما يختلج في قلوبهم من مختلف العواطف ، لم يستطع هذا التيار أن يجرفني فبقيت في الزاوية التي قبعت فيها ولا أزال في هذه الزاوية ، فاني أعتقد أن بيئتنا إذا احتاجت الى النزعات الوطنية في الماضي ، فإنها في هذا الحاضر أشد حاجة اليها ، فكأن الوطنية والقومية من خصائص أمتنا ، ولا شك في أن من هذه النزعات إحياء ذكرى المتقدمين والمتأخرين من فحول شعرائنا ورجال وطنيتنا ، فاذا أنا عملت شعراً في المتنبي والمعري وأبي تمام وشوقي ومطران ، فإني أخضع في هذا الشعر لبواعث قومية لأن شعراءنا الكبار هم الذين ولّدوا على اختلاف العصور روح القومية في الأمة ، فلا غرابة والحالة على نحو ما وصفت أن أبدأ بالشعر القومي ، وأن أستمر فيه حتى هذه الأيام » . ص ٣٧٥ .

لقد التزم الشاعر شفيق جبري بقضايا وطنه المصيرية ، دون أن يفرض عليه ذلك ، واختار هذا اللون الشعري من تلقاء نفسه ، بوحي من ضميره ، ودافع من وجدانه الحي ، فكيف تراه يحبس قلمه ، ويلجم لسانه ، ووطنه يتلوى تحت سياط الجلادين ، وتتنزى جراحاته الدامية ، وأمته مغلوبة على أمرها ، مقهورة حتى الصميم ؟ . أمة سليلة مجد وعزٍّ سلبها الغاصبون حريتها واستباحوا حرماتها ، فماذا عسى أن يفعل الأدباء والشعراء ؟

لم يقسره أحد على الالتزام بالقضايا الوطنية والقومية غير ضميره وحسه النامي ، وشعوره اليقظ ، وقد صرح بذلك في قوله : « اننا معاشر أهل الشام نفضل الشعر الذي نرى عليه آثار القومية ، وآثار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوطنية ، لأننا في غلاب ونضال . إننا نستخدم الشعر حتى يقوى فينا هذا الغلاب وهذا النضال » . ولذلك لم يكن ثمة مفر من أن تطغى الحماسة والثورة على شعره ، في أطواره كلها ، فيستغرب كيف تبكي العنادل أوطانها ، ولا يندب الشاعر أوطانه الجريحة الممزقة :

أتبكي العنادل أوطانها ولا يندب المرء أوطانه ؟

فإذا ما توفي صديقه الزعيم فوزي الغزي ، وكان علما من أعلام الوطنية والجهاد ، وراحت دمشق تبكيه عن بكرة أبيها ، هتف بهذه القصيدة الرنانة التي صب فيها كل ما في أعصابه من حمية ، وكل ما في صدره من تأجج وحماسة فقال :

بدمي وروحي الناهضين على الحمى
الطالعين على العرين أسودا
الزاحفين إلى القيود وملؤهم عزم يحل سلاسلا وقيودا
الرافعين إلى الثريا عزهم عزا يقلقل دهرهم صيخودا
المخلصين لربعهم مضض الهوى النازعين سخائما وحقودا
أبت المكارم أن تذل رقابهم وأبت أمية أن تكون عبيدا

واذا ما أطل أول عيد للجلاء في السابع عشر من نيسان عام ١٩٤٧ ، ورأى الأعلام الوطنية ترفرف على المباني ، والرايات تخفق هنا وهناك ، ولاحت له الفرحة الغامرة تكسو وجوه القوم راح يتساءل تساؤل العارف في قصيدته « بقايا حطين » : هل الشام في حلم أو في يقظة ؟ وكيف يمكن أن يكون ذلك حلما ، وهذه الأعلام الخفاقة أكبر شاهد على رحيل الفرنسيين ، ونيل الوطن استقلاله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حلم على جنبات الشام أم عيد لا الهم هم ولا التسهيد تسهيد ؟
أتكـذب العين والرايـات خـافقـة
أم تكـذب الأذن والـدنيـا أغـاريـد ؟
على النواقيس أنغام مسبحة وفي المآذن تسبيح وتحميد

ثم يتساءل عن مصير الفرنسيين ، ويسخر مما حل بهم ، بعد أن دحرهم ثبات شعبنا وقهرهم صمود أبطالنا فيقول :

ويـل النماريـد لا حس ولا نبـأ
ألا ترى مـا غـدت تلـك النماريـد ؟

لكنه في غمرة الفرحة العارمة لا ينسى ما حل بدمشق يوم ضربها الفرنسيون بالمدافع من ذرا قاسيون ، وجعلوها طعمة للنيران ، وأشاعوا الذعر والهلع في نفوس الأطفال :

يا يوم أيار والنيران ملهبة على دمشق تلظيها جلاميدُ
الطفل في المهد لم تهدأ مضاجعه مرّوع من لهيب النار مكمودُ

كما ندد بالاستعمار الفرنسي الذي كمّ الأفواه ، وأخرس الألسنة ، وأسكت الحناجر ، ونشر العيون في كل مكان ، ترصد تحركات الجماهير الغاضبة :

اخفض الصوت ولا تجهر به رب صوت هاج فينا الظننا
عقـدوا الألسن حتى صمتت مـا ترى للقـوم فينـا ألسنـا

لم يحصر شفيق جبري اهتمامه في دائرة وطنه الصغير سورية ، بل خرج منها الى الأقطار العربية الأخرى ، ليكون شعره الغناء في أفراح العروبة ، والعزاء في أحزانها مثل شوقي ، ولذا راح يرثي الزعيم المصري سعد زغلول ، ويذكر الشعب بضرورة اليقظة . والمطالبة بالحقوق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المسلوبة وعدم الذل أمام الغاصبين :

لا خير في شعب يســـــــــا ق الى الأذى ســـــوق الضئين
من هـــــان في طلب الحقـــو ق قضى بغصـــــــــات المهين
عـــاشت لنـــا مصر وعـــا ش رجـــــــال مصر الأكرمين

ويفرح لانتصار الثورات العربية التي شفت نفسه وأبرأت سقمها ، فلم يعد ثمة ألم للجراح ولم يعد ثمة دمع في العيون ، وراحت الابتسامات تورق على وجوه الناس جميعاً :

يـادامي الجرح لا جرح ولا ألم الجرح بعد انتفاض العرب ملتئم
امسح دموعـك ان مـاجت مـوائجهـا
فكل ثغر على الأيـــــــــــام مبتسم
تلـــك البطـولات كالأهرام راسخـــة
فـأين مـا طمسوا منهـا ومـا هـدمـوا ؟

ويهتز طرباً لهذه الثورات الوطنية الظافرة التي عمت أقطار العروبة في مصر والشام والعراق وحققت أماني الجماهير وأحلامها ، فباركها الله وأثنى عليها :

لله ثـورات تبـارك أهلهـا أثنى عليهـا الـواحـد القهـارُ
في النيـل منهـا ضجـة ميمونـة حسنت بهـا من ربعـه الآثـار
ومشى الضجيـــجُ الى الشـــآم فرددت
أصـــــداءه الأنجـــــادُ والأغـــوارُ
أكرم بـوادي النيـل ان رجالـه كرهوا الخضـوع فلم يعيهم عـار

أمـا ثورة دمشق فكانت في نظره ملء الـدهر ، لأنـه أحمى وقـودهـا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شباب متحمسون ، نذروا دماءهم للوطن ، وقدموا أنفسهم قرباناً على مذبحه المقدس :

ثارت دمشق وملءُ الدهر ثورتُها
لها على الدهر تبجيل وتمجيدُ
خفاقة بشباب العرب وارفة يحنو على حوضها الشم المناجيد[٢]

لكنه يتألم كل الألم لأن العرب ناموا عن نصرة فلسطين ، وتركوا اليهود الشذاذ يعيثون فساداً في حرم قدسها ، ولذلك يدعوهم الى حصدهم حصد السنابل ، حتى يتهدم كيانهم ، وتتزلزل أركانهم التي أقاموا على الفساد :

أيعيث اليهود في حرم القد س فسادا والنوم يأخذ منا ؟
لفظتهم جوانب الأرض شذا ذا فتاهوا القرون قرنا فقرنا
ضجرت منهم الشياطينُ والانـ س فأنى نحنو عليهم أنّى ؟
احصدوهم حصد السنابل حتى تتداعى صهيون ركنا فركنا
أو تمور السماء والأرض ما دا نت فلسطين عنوة أو دنا

ويسخر من السلام المزيف الذي تدعو إليه بعض الدول الاستعمارية الكبرى ، لأنه سلام مبطن بالحرب ، يخفي في طياته أطماع هذه الدول ، ونياتها العدوانية :

قالوا السلام ، وما أرى للسلم من ظل مديد
الناس في مضض الزحا م من المهود الى اللحود
نصبوا بمدرجة الختا لِ شباكهم ويح المصيد

(٢) عن مجلة العرفان ، العدد ٦ و ٧ من المجلد ٦٧ ص ٧٣ (العدد الخاص بعنوان عشرة من الناس) حزيران وتموز ١٩٧٩ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتهـــــارشـــون على الفتيـ ت يحـارشـون على الثريـد

ويهلل للحرية ، ويدعو أن تسود جميع شعوب الأرض ، وترفرف راياتها في كل مكان ، فهي نعمة للشعب ، ونقمة على المستبد الذي يخاف منها ، ويتمنى أن يهتك أستارها .

لاتخفضَنْ يا دهرُ من قدرهـا كلٌّ كريم رافع قـــدرهـــا
كم حـائر طـاحت بـه ضلـة ثم اهتـدى لمـا رأى بـدرهـا
ومستبـــدٌّ راعـــه خطبُهـــا يجهـد في تهتيكـــه سترهـــا

ويتغنى بالوحدة التي قامت بين سورية ومصر ، ويتمنى لو استفاق شوقي من قبره ليرى كيف اتحد هذان القطران تحت راية واحدة ، وغدا سيحققان الوحدة الكبرى بين جميع الأقطار . يقول مخاطباً شوقي :

ارم عنـــك الأكفـــان واطرح ثرى القبـ
ـرِ وشـــاهِـــدْ ملكا على النيـل رحبـــا
تلتقي الشـام فيـه تربـا لمصر كل ترب يشد في الملك تربـا
وغـــدا تـزحف الـــديـــار ديـــار الـ
ـعرب تحت الـــدرفس روحـــا وقلبـــا
انما العربُ وحـدة فـاذا صـا ل عـدو كانـوا عليـه إلبـا

وهكذا فقد كان شفيق جبري من بناة الفكر العربي ، وممن أرسوا في شعرهم قواعد الوحدة ، ودعوا الى الحرية والالتزام والثورة على الظلم والظلام ، دون أن تخفيه رهبة مستبد ، أو سلطة حاكم ...

نظرة في شعره

يمتاز شعر شفيق جبري بالقوة والجزالة ، وتدفق العاطفة ، والتهاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المشاعر ، وقد كان للمتنبي والبحتري أثرهما الواضح في شعره ، كما يمتاز بصفاء الديباجة ، وحسن السبك ، ووضع الكلمات في مواضعها في البيت ، وهو من دعاة الأسلوب ، لا يفتأ يردد على مسامع تلاميذه قول أناتول فرانس « الأسلوب هو الرجل نفسه » ويُعْنَى أشد العناية بطالع قصائده ، وربما نظم القصيدة كلها ثم راح يفكر بالمطلع الذي قد يبدله مرات قبل أن يستقر نهائيا .

كان يتعب في صقل شعره ، لاعتقاده أن اللفظة تشترك اشتراكا فعليا في تأدية المعنى وأن المعنى وحده لا يغني عن النغمة ، ولذلك يسر القارئ بسماع شعره أكثر مما يسر بقراءته ، لأنه أنغام تطيب في السمع ، أكثر مما تطيب في الفكر ، ولا سيما عندما يؤديه بصوته الجهوري وهو بهذا أشبه بحافظ إبراهيم .

ولأسلوبه هذا الجرس الذي ينزل من النفس منزلة سهلة ، فهو لا يتقعر بألفاظه ، ولا تتنافر كلماته ، بل يلائم بينها بدقة فائقة ، وذوق رفيع ، ويتخيرها بمهارة وحذق .

وهو معروف بطول نفسه في النظم مع القوة والاحكام ، وقد بلغت قصيدته « بطولات العرب » التي ألقاها في مهرجان الشعر الأول بدمشق عام ١٩٥٩ مئة وثلاثين بيتاً . ولم يكن يدع الفرص والمناسبات الطارئة تفوته ليقول الشعر الوطني ، فنظم في أربعين سعد زغلول ، وذكرى الزهاوي ، وتأبين المنفلوطي ، ومهرجان شوقي في القاهرة عام ١٩٦٠ ، وذكرى ابراهيم هنانو ، وموت فوزي الغزي ، وأحمد كرد علي وغيرهم ... فالمناسبات وحدها كانت تبيح قول الشعر ، وخاصة في القومية ، لأنها تجمع الناس للاستماع ، ويظن الدكتور سامي الدهان أن الزمان القلق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والظروف الحرجة هي التي دفعت شفيق جبري الى أن يقف حياته ولسانه على التغني بهذه القومية ، فبرع فيها ، وسكت عن كل ما عداها ، وكان منه شعر متين موسيقي قوي التراكيب ، منسجم الأبيات في وحدة متكاملة . لا تعتمد البيت الواحد ، وانما هي كل متماسك ، دعا اليه الشاعر كل حياته ، واستمسك به في أكثر شعره ، تتسلسل فيه الأبيات ، فلا يتقدم بيت ، ولا يتأخر بيت ، كما نستطيع أن نفعل في أكثر أشعار القدماء .

وهو على ذلك منسق الترتيب في أجزاء قصيدته ، لا ينتقل من معنى الى آخر قبل أن يتمه على عادة الشعر الغربي ، وهي ميزة كبيرة لم تتح لكثير من زملائه . فهو في هذا مجدد ، يسير مع الشعر الحديث في وضوح أقسامه وفي معانيه ، ويختلف الى شعره التصوير المجنح ، والعبارات الجامحة ، مما كان القدماء يسمونه بالاستعارات والمجازات ، وفي هذا يعير الألفاظ ظلالاً وألواناً تخلد أقواله ، ويكسوها في كثير من الأحيان بالطيب والعطر ، فتفيد منها الحواس الخمس ، وهو كل ما يطلبه الغربيون عند الشاعر المحلق .

المصادر

١ ـ أنا والشعر لشفيق جبري ـ محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ٥٩ .

٢ ـ الأدب العربي المعاصر في سورية لسامي الكيالي ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٩ .

٣ ـ الشعراء الأعلام للدكتور سامي الدهان ـ دار الأنوار ـ ١٩٦٨ .

٤ ـ شعراء سورية لأحمد الجندي ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٦٥ .

٥ ـ الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام للدكتور جميل صليبا ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ١٩٥٨ .

٦ ـ تاريخ الشعر العربي الحديث لأحمد قبش ـ دمشق ١٩٧١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٧ ـ الموسوعة الموجزة لحسان الكاتب ـ المجلد الرابع ـ مطابع ألف باء الأديب ـ دمشق ٩٧٩ .
٨ ـ أعلام الأدب والفن لأدهم الجندي ـ الجزء الثاني ـ مطبعة الاتحاد ـ دمشق ٩٥٨ .

المجلات

١ ـ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ـ الجزء الثالث ـ تموز ١٩٦١ .
٢ ـ مجلة المجلة العربية ـ العدد الأول ـ السنة الرابعة ١٩٨٠ .
٣ ـ مجلة التبغ ـ العدد الخامس ـ تشرين الثاني ـ السنة الأولى ١٩٥٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net